المدنية الاسلامية (١)
وأثرهـــا فى أوربا

للأديب الأفغانى محمد سعيد بخت ولى

قال المؤرخ مورفى فى كتابه تاريخ دولة العرب فى أسبانيا : يجب أن نعترف بأن العرب قد أجادوا تشخيص الأعراض . ومنهم عرفنا أول وسائل لمعالجة الجدرى والحصبة وصعوبة البلع . وكان أثمن ما استحدثوه فى فن المعالجة العقاقير المليئة بدل المسهلات الحادة ، التى كان يستعملها اليونان بكثرة . ونبغوا أيضاً فى مباحث التشريح والجراحة ، وأتقنوا فن الصيدلة وغيرها من فنون الطب المتعددة ، حيث لا يتسع المجال لذكرها . هذا وقد فاقت أبحاثهم فى الرياضيات أبحاثهم فى الفلسفة . وهم الذين وضعوا علم الجبر الذى ابتكره جابر الرياضى الأشبيلى المتوفى سنة ١١٩٦ م ، وقد تبحروا أيضاً فى الفلك وخواص الكواكب ، ولهم فيه مباحث جليلة الشأن .

على أن فى نبوغ العرب فى الكيمياء ما يستثير اعجاب أوربا الحديثة . والحق يقال ان العرب هم الذين اكتشفوا علم الكيمياء ، واستخدموها فى الطب والفنون والصناعات ، مثل تنقية المعادن وصبغ الأصواف بالألوان البديعة ، وتركيب الروائح العطرية ، ودبغ الجلود . وقد عرف العرب فى القرن العاشر عمليات التقطير ، وتحضير الكحول ، واكتشفوا الحوامض المعدنية ، والقلويات النباتية والمعدنية . ولا تزال كلمة : الكحول ، والأنبيق ، والقلى تدل على أصلها العربى . أما الموسيقى فقد ازدهرت أيما ازدهار فى عهد بنى أمية بالأندلس ، فى القرنين التاسع والعاشر .

وقد بلغ العرب شأوا بعيداً فى الزراعة والصناعة . ففى مكتبة الأسكوريال بأسبانيا كتاب فى الزراعة ، لأبى زكريا الأشبيلى ، يدل على مبلغ تقدمهم فى معرفة طبائع الأرض واستخراج كنوزها ، وطرق الرى والصرف وملاءمة التربة ، والطقس لزرع النباتات المختلفة . قال كاباتون : « كانت مدنية العرب فى أسبانيا ظاهرة فى الأمور المادية وذلك بما استعملوه من الوسائط الزراعية لأخصاب الأراضى البائرة فى الأندلس ، الى أن

(١) تتمة الموضوع الذى نشر فى الجزء الماضى

قال دى لاجريز : « فى الوقت الذى كانت فيه ظلمات الجهل تغمر الدول التى تقف الآن موقف رأس المدنية ، كان العرب سادة الأسبان ، قد أقاموا هلال محمد فى مكان صليب المسيح ، ونظموا وسائل الرى بطريقة تستحق الاعجاب ، وشيدوا صروحا فخمة ، وأجادوا الشعر ، وأحيوا الفنون الجميلة . وفى دياجير القرون الوسطى أناروا أسبانيا بنور ساطع ، كان الناس سيجدون مشقة وعناء فى فهمه وتعليله ، لولا أن خلده التاريخ الخ . . »

*
* *

ولننظر قليلا الى الاسلام وكيف عامل المرأة التى هى المقياس الحقيقى لارتقاء الأمم وانحطاطها ، فقد منحها من الحقوق ما عجزت جميع الحضارات قديماً وحديثاً عن منحه . وإن من أخبار المرأة فى الاسلام ما امتلأت به المجلدات الضخمة والأسفار العظيمة . فلنقتصر على لمحة وجيزة عنها لنعلم مبلغ ما وصلت اليه من المجد والرفعة .

فكان تعليم البنات سائغاً فى الاسلام ، فلما ترى منهن من لا يحفظن الشعر وينظمنه ويترسلن فيه ، كما تفعل بنات أوربا اليوم . وقد برز منهن كثيرات فى العلم ، والأدب والفلسفة . حتى أن قاضى القضاة شهاب الدين بن خلكان كان تلميذاً على احداهن ، وهى زينب بنت أبى القاسم التى أجازها العلامة الزمخشرى . وكان منهن الخطيبات المفوهات مثل الزرقاء بنت عدى ، وأم الخير البارقية ، وهما ممن اشتهرن فى واقعة صفين . وهذه عالية بنت المهدى أخت هارون الرشيد . كانت عالمة جليلة تساجل الأدباء . وتناظر العلماء وولادة بنت المستكفى حيث كان لها مجلس تمتد فيه الموائد ، ويجتمع اليها فيه صفوة العلماء والحكماء ، والأدباء والشعراء . ووجد منهن من تقلدت مهام الدولة ، مثل الزباء ملكة العراق ، وضيفة خاتون صاحبة حلب ، التى قامت بالملك خير قيام ، وغازية صاحبة حماة ، وغيرها مما لا يتسع المقام لذكرهن .

ولنذكر كيف انتقلت المدنية الاسلامية الى أوربا ، فانه من المعلوم لما توطد الملك للعرب فى الشرق والاندلس . أرادوا أن يفتحوا أوربا فغزوا فرنسا واستولوا منها على سبتمانيا ومدينة ناربون وجعلوها قاعدة لأعمالهم الحربية . واستولوا أيضاً على كاركاسون ، ونيم ، وأتون ، وبون ، وسانس ، وافنيون وبوردو . ولما أراد الأمير عبد الرحمن الغافقى أن يستولى على تور ، قام له بينها وبين بواتيه شارل مارتل من أمراء تلك البلاد ، وصده

عن بلاده ، ومن ذلك الوقت توقف الفتح الاسلامى . وفى ذلك الحادث قال هنرى دى شامبون : « لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجى على تقدم العرب فى فرنسا ، لما وقعت فرنسا فى ظلمات القرون الوسطى . ولما أصيبت بفظائعها ، ولا كابدت المذابح الاهلية الناشئة عن التعصب الدينى والمذهبى ، ولولا ذلك الانتصار البربرى على العرب لنجت اسبانيا من وصمة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون . ونحن مدينون للشعوب العربية بكل محامد حضارتنا فى العلم ، والفن ، والصناعة . مع اننا اليوم نزعم حق السيطرة على تلك الشعوب العريقة فى الفضائل ، وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشرى مدة ثمانية قرون بينما كنا يومئذ مثال الهمجية الخ ... »

وبعد أن رجع العرب من موقعة بواتيه أقاموا فى سبتمانيا ، وجعلوا منها أماكن دائمة وعقدوا عهوداً مع أهل البلاد وأدخلوا كثيراً من كلماتهم فى الاصطلاحات اليومية فى الحياة . وكان رجال الكنيسة فى تلك البلاد يؤثرون حكم العرب العادل على حكم الجرمانيين . وأخذت الصلات العديدة تنعقد بين المسيحيين والمسلمين . وفى ذلك العهد انتقلت الى أوربا عادة استعمال الارقام والكسور العشرية ، وبقيت أسماؤها عربية مع ما لحقها من التعديل . قال سيديو : « إن التعابير النادرة جاءت اللغة الفرنسية من العربية اكثر من اللاتينية . إلى أن قال : والعرب أساتذتنا فى العلوم بل فى سائر المعارف البشرية » . ومن المعلوم أن العرب كانوا سادة البحر الابيض المتوسط فى القرن السابع وبعده ، فأعطوا الطليان والفرنسيين الألفاظ البحرية ، وكان ملوك فرنسا يقلدون العرب فى كل شىء . وكان ترتيب الديوان الملكى وتدبير شؤون الحكومة الصقلية على المنوال العربى تماماً . سيما وأن الملك روجر الذى تقلد الملك سنة ١١١٢ م . كان قد نشأ نشأة عربية بحتة فأظهر ميلا عظيما إلى المدنية الاسلامية ، ونسج على منواله فردريك الثانى الذى تسلم مقاليد الحكم سنة ١١٩٤ م . قال يوسف جير المستشرق الألمانى : « إن البرت الكبير الذى كان أسقفا ألمانيا سنة ١٢٦٠ م . أدهش جميع معاصريه بسعة معلوماته ولا سيما فى الكيميا والعلوم الميكانيكية حتى سموه دكتوراً عاما ، وذلك لأنه اطلع على المخطوطات العربية . وكان يقتبس من كتب الفارابى وابن سينا والغزالى إلى أن قال : وأما روجر بيكن الانجليزى فانه اخترع المكرسكوب وذلك على أثر اطلاعه على كتاب أبى الهيثم البصرى»

قال : كما أنهم أسسوا معامل للحرير والجلود والبلور وغزل الصوف ، والقطن والكتان والقصب ، وأقاموا ما لايحصى من المعاهد العامة وفيها ما يستدعى إعجاب الأمم بأسرها حتى بعد ثمانية قرون من إنشائها الخ . . . »

وقد ذكر ابن حوقل أنه كان فى اسبانيا فى عهد المسلمين مناجم عديدة للذهب والفضة . وكان فى طليطلة وغرناطة مصانع كبيرة للحديد والصلب وكانت الأسلحة والذخائر تصنع بكثرة. ثم تصدر الى افريقيا ، وقد كانت ملكة الاختراع والاستنباط متجسمة فى عقول الأندلسيين الذين منهم أبو القاسم عباس بن فرناس، حيث صنع فى منزله هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود . وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة ، واحتال فى تطيير جثمانه ، وكسا نفسه الريش ، ومد له جناحين ، وطار فى الجو مسافة بعيدة ثم سقط . فهو أول من حاول الطيران من بنى البشر . وقد عرفت الطباعة فى الأندلس ، فكان أحد أبنائها وهو عبد الرحمن بن بدر أحد وزراء الناصر ، السابق فى مضمار هذا الاختراع ، قد سبق جوتنبرج الألمانى مخترع الطباعة بنحو ثمانية قرون .

* * *

وكان المسلمون قد امتد سلطانهم على البحر الأبيض المتوسط ، فملكوا الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل: ميورقة، ومنورقة ، وسردانيا ، وصقلية ، ومالطة ، واقريطش، وقبرص

وقال الأستاذ لاين بولى فى كتابه (العرب فى اسبانيا) : لبثت اسبانيا فى قبضة المسلمين ثمانية قرون وضوء حضارتها الزاهرة يبهر أوربا وازدهرت بقاعها الخصبة بمجهود الفاتحين وأنشئت المدائن العظيمة فى سهول الوادى الكبير ووادى يانا ، فلم يبق ثمة ما يذكرنا بماضيها المجيد سوى الأسماء والأسماء فقط » .

هذه نبذة وجيزة عن المدنية الاسلامية وأثرها فى العالم الأوربى تذكرة لنا وذكرى لمجدنا الضائع الذى أهملناه باتباع الغشور وترك اللباب فى جميع الأشياء . حيث أرخينا على أنفسنا سجف الكسل والخمول . واندفعنا الى المجادلات التى لا طائل تحتها . ولم نجعل للوقت قيمة . ففقدنا الدنيا والدين ، وأصبح العبيد سادة لنا . فيالهذا الخسران المبين .

محمد سعيد بخت ولى